

قراءة في مشروع مالك بن نبي(1973-1905): ميلاد الحضارة وشروط النهضة

عابد فتيحة

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.

Abedfatiha34@yahoo.fr

الملخص:

النهضة أو الثورة أو الحداثة وحتى التقدم كلها مفاهيم وإن اختلفت في أصلها الإصطلاحي إلا أنها مثلت بحق الهاجس الأكبر لكل الفلاسفات على اختلاف مشاربها وتنوع تعاليمها. ولعل "مالك بن نبي" واحد من أبرز المفكرين والفلاسفة العرب الجزائريين المعاصرين، اللذين تكلموا بجدية عن مشكلات الحضارة والصراع وشروط النهضة. هاته الأخيرة ستكون محور هذه المداخلة، وتجدر الإشارة أن هذه القراءة لن تكون قراءة نقدية، أو إبراز الثغرات التي وقع فيها بن نبي، وإنما هي قراءة تحليلية لفكره، وبالتحديد مسألة الحضارة والنهضة وشروطها. ووقفا عند كتابه "شروط النهضة" الذي يعتبر الباب المفتوح لكل خطاب نهضوي يؤسس لحضارة متكاملة في دورتها ونظرياتها. والتي تتضح فيه معالم هذا المشروع بشكل صريح وواضح.

الكلمات المفتاحية: المشروع؛ الحضارة؛ النهضة؛ مالك بن نبي.

إن أزمة الواقع العربي ووضعه العلمي والثقافي والسياسي والإقتصادي، وغيرها من المجالات، وسؤال النهضة وكيفية تجاوز التأخر، ووضع إمكانات التقدم، واستعاب الحداثة في خضم الصراع القائم في الوطن العربي والعالم. ومستجدات الحاضر هي إشكالية ومعضلة جذرية

تطرح نفسها باستمرار على الواقع العربي والإسلامي. وهذا ما جعله يلتفت إلى ذاته ويراجع موقفه المعرفي، ويدرك أنه لا بدّ للذات العربية أن تؤكد حضورها. وأن تقوم بدور المنتج لا بدور المستهلك، وذلك وفق رؤية جديدة تساهم في بناء النهضة العربية القائمة على النقد الموضوعي والحوار الجاد والهادف.

النهضة أو الثورة أو الحداثة وحتى التقدم كلّها مفاهيم وإن اختلفت في أصلها الإصطلاحي إلا أنها مثلت بحق الهاجس الأكبر لكلّ الفلاسفات على اختلاف مشاربها وتنوع تعاليمها. ولعلّ "مالك بن نبي"¹ واحد من أبرز المفكرين والفلاسفة العرب الجزائريين المعاصرين، اللذين تكلموا بجديّة عن مشكلات الحضارة والصراع وشروط النهضة. هاته الأخيرة ستكون محور هذه المداخلة، وتجدر الإشارة أنّ هذه القراءة لن تكون قراءة نقدية، أو إبراز الثغرات التي وقع فيها بن نبي، وإنما هي قراءة تحليلية لفكره، وبالتحديد مسألة الحضارة والنهضة وشروطها. ووقفا عند كتابه "شروط النهضة" الذي يعتبر الباب المفتوح لكل خطاب نهضوي يؤسس لحضارة

1- كاتب ومفكر إسلامي، له طابع العالم الاجتماعي، ولد بقسنطينة ودرس القضاء في المعهد الإسلامي المختلط وتخرج في الثلاثينيات مهندسا ميكانيكيا في معهد الهندسة العالي في باريس، وزار مكة وبعض الأقطار الإسلامية، وأقام في القاهرة سبع سنوات أصدر فيها معظم آثاره باللغة الفرنسية، وترجم بعضها إلى العربية تولى إدارة التعليم العالي سنة 1964. بوزارة الثقافة والإرشاد القومي وكان عضوا في مجمع البحوث الإسلامية في القاهرة، من آثاره الظاهرة القرآنية، =شروط النهضة، مشكلة الثقافة...منقول من: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية، 1980، ص282.

متكاملة في دورتها ونظرياتها. والي تتضح فيه معالم هذا المشروع بشكل صريح وواضح. كما نجد تلميحات أخرى تمهد لمشروعه من خلال كتاباته، وعلى هذا الأساس سأقدم قراءة تمهيدية أو أولية بهدف الكشف عن الملامح الأولى والعامّة لهذا المشروع، وأيضا الكشف عن الهاجس الفكري والفلسفي الذي دفع مالك بن نبي للحديث عن مشكلات وقضايا أرقت العالم العربي وحتّى الغربي. مثل مشكلة الحضارة والنهضة اللتان هما أساس ومركز فكر مالك بن نبي. لهذا يصبّ هذا البحث في إطار إستنتاج مفهوم النهضة وشروطها في بناء الحضارة وميلادها في حدود أفكار بن نبي. وهذا ما جعلنا نطرح الأسئلة التالية: ما هي الملامح العامّة والجوهرية لمشروع مالك بن نبي؟ بعبارة أخرى ما هي الشروط الجوهرية لقيام نهضة حضارية؟ أي ما مفهوم الحضارة و"النهضة"² عند بن نبي؟

1- المرجعية الفكرية لمالك بن نبي:

إرتبطت الحياة التكوينية لمالك بن نبي بثقافة الفكرين الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي، وبالعهد الإستعماري في الجزائر(1962-1954م)، وتحديدًا السنوات الأولى من

2- في معناها اللغوي: نهض: النهوض البراح من الموضع والقيام عنه.

نهض: ينهض نهضاً نهوضاً. أي قام. انتهض القوم: قاموا للقتال.

النهضة: الطاقة القوة. مكان ناهض: مرتفع. أنظر: إبن المنظور، لسان العرب، المجلد السادس، دار صادر، بيروت، ص 267.

أما في معناها الإصطلاحي تطلق كلمة النهضة على الحركة الثقافية التي بدأت في إيطاليا في منتصف القرن الرابع عشر، واستمرت حتّى القرن السابع عشر، وامتدّت من إيطاليا إلى بقية أوروبا. أنظر: عبد المنعم حنفي، موسوعة الفلسفة والفلسفة، ج2، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص 1432.

الإستعمار، في هذه المرحلة كانت للمقاومة كلمتها وصوتها. لقد شهد العالم أحداثا كبرى، كما شهدت الجزائر أحداثا كبرى أيضا، فاندلاع الحرب العالمية الأولى (1914-1918) والحرب العالمية الثانية (1930-1945)، وارتكاب الحكومة الفرنسية مجازر رهيبة في حق الجزائريين في 08 ماي 1945م، هذا على الصعيد الخارجي أما على الصعيد الداخلي، فلقد برزت في الجزائر عدّة حركات ونزعات وطنية من بين أهم الحركات تأسيس جمعية العلماء المسلمين سنة 1931م، على رأس عبد الحميد ابن باديس. كما تأسست أحزاب سياسية شعبية وكان شعارها الحرية والإستقلال للجزائر، واندلاع الثورة الجزائرية سنة 1954م. كلّ هذه الأحداث صبغت في ذهن مالك بن نبي، وظهرت آثارها في أفكاره وفلسفته ومؤلفاته، وبفضلها إستطاع صياغة نظرياته حول الحضارة والمجتمع والنهضة. لأنه حاول أن يقرأ خصائص هذا المجتمع بكافة ميادينه الإقتصادية، والسياسية، والدينية، والثقافية.

في الثقافة العربية الإسلامية تأثر بمصدر الشريعة الإسلامية القرآن الكريم والسنة النبوية وهذا ظاهر في أول مؤلف له "الظاهرة القرآنية" كما نجد قد "تأثر بكتاب "أم القرى" لعبد الرحمن الكواكبي (1849-1902)، يقول بن نبي لقد كشف لي هذا الكتاب أم القرى إسلاما بدأ ينظّم صفوفه ليدافع عن نفسه ويقوم بحركة بعث جديد"³ وحقا يسعى للنهضة. كما قرأ وتأثر بالتاريخ الإسلامي (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمؤرخ

³ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد قرن، القسم الأول: الطفل 1905-1930، القسم الثاني: الطالب (1930-1939)، إشراف فدوى مالك بن نبي، دار الفكر، سوريا، الطبعة الثانية، 1984، ص 88.

المسعودي. كما تأثر بكتابات ابن خلدون وخصوصا في نظريته عن الدورة الحضارية التي كانت أفكاره بعد ذلك تطويرا لها، فقرأ مقدمته وصارت مرجعا له في معظم كتبه، وأصبح ابن خلدون أستاذه الأول . وتأثره الشديد بالعمران البشري، كما ذكر في مذكرات حياته "شاهد قرن"" في الفكر الغربي كانت إقامته في فرنسا جعلته يقرأ لعدد من الكتاب الفرنسيين والفلاسفة، حيث تعرّف على الثقافات والديانات. كما تأثر بعدة تيارات وفلسفات خاصة ذات الطابع الاجتماعي والثقافي. خاصة الفيلسوف الفرنسي (كونديلا *condillae*) فمعه عرف معنى الفلسفة وأنّ مع هذا الكتاب أخذ عقله وأفكاره وثقافته بإتجاه واحد ومعين.

وهذه الإقامة في فرنسا جعلته يتوصل إلى قناعة أنّ فرنسا التي يعيشها في باريس هي نفسها فرنسا المستعمرة، ولا يوجد حقوق ومساواة للطالب الفرنكوفوني نلاحظ أنّ بن نبي يحمل أفكارا معادية للإستعمار وهذا ما أثر على فلسفته وفكره.

إنّ بن نبي قرأ لابن خلدون، والكواكبي، ورسالة التوحيد لمحمد عبده. يقول بن نبي " أمّا كتاب محمد عبده وهنا أتحدث عن المقدمة الهامة المترجمة حول غنى الفكر الإسلامي عبر العصور فقد أعطاني مستندا للحكم على فقره المحزن اليوم."⁴ كان لهذه الثنائية الثقافية (الإسلامية والغربية) أثرها في تكوينه الفكري، وانعكاساتها الواضحة في كتاباته التي تميزت بالمزاوجة بين المصدرين: بين الانتماء لحضارة

4- مالك بن نبي، مذكرات شاهد قرن، مصدر سابق ، ص66.

الإسلام والرغبة في التطور. "هذه القراءات شكلت بالنسبة لي قوة أخرى من التنبيه في المجال الفكري"⁵.

2- أساسيات ومضامين مشروع مالك بن نبي (ميلاد الحضارة)

حقيقة إن مشروع مالك بن نبي الفكري قد بدأ رحلته في السنوات الثلاث الأخيرة من النصف الأول من القرن العشرين، وبالتحديد مع صدور كتابه الأول الشهير "الظاهرة القرآنية" صدر في طبعته الأولى بالفرنسية سنة 1946م، وصدرت طبعته الأولى بالعربية في 1958م. واتضحت ملامح المشروع سنة 1948م مع كتاب "شروط النهضة" وبعد ذلك توالى الأعمال في الصدور ليكتمل ملامح مشروع مالك بن نبي الفكري والفلسفي في أعمال قيمة أهمها: ميلاد مجتمع، وجهة العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة، ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

إنّ المتصفح لكتابات مالك بن نبي يلاحظ بأنّه كتب عن قضايا العالم الإسلامي، ومشكلة الشعوب التي هي مشكلة حضارية بالنسبة له. فقد بدأ من مشكلة الإنسان لدى فاتسم مشروع بالطابع أو النزعة الإنسية، لأنّ الإنسان كان محور إهتمامه. وهذا منطلق من ذاته أولاً، ومن الظروف التي عاشها لذلك اعتبره أي (الإنسان) عنصر من عناصر الحضارة.

إنّ النقطة الأساسية التي إنطلق منها بن نبي في بناء منظومته الفكرية هو ذلك التشابه بين ما بين الطفل والمجتمع، فميلاد الطفل ومراحل نموّه كنمو المجتمع وتطوره" إننا نريد أن

⁵- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

نعطي للقارئ العربي والمسلم فرصة التأمل في هذه المرحلة من تاريخ المجتمع، حين يولد، أو حين ينهض، وذلك بأن نريه أنّ النهضة الحقّة تقع في ظاهرة إجتماعية عبّر عنها النبي صلى الله عليه وسلّم في حديثه المشهور: لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها⁶. معنى أنّه حاول أن يكون المجتمع فعل نهضوي ونموّه من نمو الطفل أو الإنسان يمر بمراحل وهكذا المجتمع من مرحلة الأشياء إلى مرحلة الأشخاص، إلى مرحلة الأفكار.

يرى بن نبي" أنّ الطفل إنسان منعزل في طريقه إلى الإدماج⁷ فنتبعنا لخطوات الطفل نجده في بداية النمو لا يدرك شيئاً، وإنّما يعرف الأشياء فقط، ومن جهة أخرى لا يعرف من يحيط به، ولكن شيئاً فشيئاً "يمتدّ بصره ويصبح يعرف بعض الوجوه ويميّز بين بعضها"⁸.

فبلوغ هذا المستوى هو دخوله إلى معرفة عالم الأشخاص وبدخوله المدرسة يكتشف عالم التصورات، وعالم الأفكار، وعندما يتجاوز السن السادسة أو السابعة من عمره كما يقول بن نبي، فإنّه يصادف مشاكل وعقبات تبدو له معقدة ومركبة. ثمّ يكتشف أنّ ليس لديه القدرة على حلّها. إنّ الإنسان يجتاز طور الطفولة ثمّ طور الشباب، ثم طور الكهولة فالشيخوخة فيفقد القدرة على الإبداع والابتكار.

6- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، الجزء الأول شبكة العلاقات الإجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، طبعة 8، 2010، ص 7، من المقدمة.

7- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، إشراف وتقديم: عمر مسقاوي، دار الفكر، سوريا، الطبعة 9، 2009، ص 28.

8- المصدر نفسه، ص 29.

هكذا المجتمعات البشرية يقول مالك بن نبي تجتاز هذه المراحل خاصة في نموها النفسي والاجتماعي، لكل المراحل التي يجتازها المجتمع ليست واضحة كلّ الوضوح كما هي عند الطفل" إنّ الانتقال من مرحلة إلى أخرى ليس بالوضوح الذي نراه عند الفرد، فكلّ مجتمع مهما كان مستواه من التطور له عالمه الثقافي المعقد".⁹

وإعتبر الإنسان الحجر الأساسي في عملية البناء الحضاري، فالمجتمعات الحيوانية لا تنتج حضارة، هي حبيسة ميولها ورغباتها تركّز على الجانب البيولوجي، أمّا الإنسان فقد كرّمه الله وفضّله على باقي المخلوقات. لأنّ الإنسان بفضل حكمته وعقله أنشأ حضارات عبر الزمن. فلقد استغل كلّ خيرات الطبيعة لعمل نافع إستفاد منه، لذلك يرى بن نبي أنّ المشكلة الحضارية لا تتمثل فيما نملكه من أدوات، وإنّما تتمثل أساسا في جهازنا الاجتماعي الذي هو الإنسان" فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ".¹⁰ انطلق مالك بن نبي من فكرة محورية هي أن نهضة أي مجتمع تتم في نفس الظروف التي شهدت ميلاده، وعلى هذا فإن إعادة بناء المجتمع المسلم الحديث لا بد أن تنطلق من الفكرة الدينية كأساس لأي تغيير اجتماعي.

نلاحظ أنّ فكر بن نبي يتأسس وفق محددين الإنسان والمجتمع وتفعيل العلاقة بينهما، فمشروعه يتأرجح بين الحاضر والتاريخ(الماضي)، والمستقبل وهذا ما سنحدده في شروط

⁹- المصدر السابق، ص36.

¹⁰- مالك بن نبي، تأملات، ترجمة: عمر بسقاوي، إشراف: ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، سوريا، 1989، ص129.

النهضة ومشكلة الحضارة. إن فكر ومشروع مالك بن نبي يتمحور في الجانب السياسي والإجتماعي للمجتمعات العربية ومشكلة الصراع الكبير الذي هو الحضارة الغربية، إذن مالك بن نبي يبني مشروعه على فكرة العوالم الثلاث (الأشياء والأشخاص والأفكار). وبفضلها نستطيع أن نحدد قيمة أو درجة التحضر وترتبط بينهما الدورة الحضارية، والذي يبني الحضارة هي الأفكار التي هي فكرة غذائية للمجتمع فالحضارة تبنى على إطار ثلاث عناصر الوقت، التراب، والإنسان.

ومن أهم ومضامين مشروع مالك بن نبي الفكري والفلسفي أنه إهتم بمشكلات العالم العربي الإسلامي من حضارة ونهضة والإقتصاد الإسلامي، ومشكلة الثقافة والدين والصراع كل هذه العوامل والبياديين حاول تفعيلها داخل المجتمعات الإسلامية.

3- شروط النهضة ومشكلة الحضارة عند مالك بن نبي:

إن الحضارة بمفهومها العام هي نمط من الحياة تشمل التقدم والرقي، في المجال العلمي والثقافي والأدبي والإجتماعي، والسياسي. ويرجع أصل الحضارة إلى الإستقرار الذي بدأ مع ظهور الزراعة، حيث أنّ هذا الإستقرار ساعد الإنسان على إنشاء المدن واكتساب العلوم والفنون، وفتح للمجتمعات أبواب التقدم والتطور. إذن الحضارة هي نظام إجتماعي مكن الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي والفكري. كما جاء في لسان العرب لابن منظور "في مادة حضر أنّ الحضارة تعني الإقامة في الحضر أي في المدن والقرى"¹¹.

يعرفها مالك بن نبي "إنّها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوقر لكل عضو فيه جميع الضمانات

¹¹ - ابن المنظور، لسان العرب، المجلد الثاني، مرجع سابق، ص 103.

الإجتماعية الازمة لتطوره".¹² فكلّ شعب من الشعوب، وكلّ فرد من المجتمع له واجبات على وطنه ومجتمعه، وذلك بغرض الإنفتاح على قدراتهم العقلية وإبراز وإكتشاف مواهبهم، فإن قام المجتمع بهذه الواجبات أصبح مجتمعا متحضرا. وهو تعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة تدفع به إلى تنظيم علاقاته ومنظوماته داخل المجتمع. ولقيام هذه الحضارة لابدّ من توفر ثلاث عناصر أساسية في فكر بن نبي وهي: الإنسان، التراب، والوقت، يعني أنّ مشكلة الحضارة هي مشكلات تتألف من هذه العناصر الثلاث وهذه العناصر لابدّ لها من عوامل تؤثر في حركتها وهي الفكرة الدينية التي أنتت مع الحضارة خلال التاريخ. إنّ مركب الدين يكمن في المزج بين هذه العناصر، فهكذا فالحضارة تتوقف على بناء الإنسان والإعتناء بالتراب والزمن. فإن حضرت ونفدت هذه الشروط سنخرج من عتمة التخلف والإستعمار وحتى الصراع.

الإنسان: لقد ميّز بن نبي بين الإنسان والحيوان، واعتبر الإنسان الجوهر والمركز في البناء الحضاري، لأن الإنسان هو المنتج لا المستهلك. إنّ المشاكل التي تحيط بالإنسان تختلف من حيث البيئة والمحيط الذي يعيش فيه فبن نبي يؤكد على أنّ لا يمكن التمييز بين رجل أوروبا المستعمر ورجل العالم الإسلامي القابل للإستعمار، والتاريخ هو الرابط بينهما

¹² - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سبق ذكره، ص42.

من حيث التركيب والمرافقة. يتسأل بن نبي: كيف يؤثر "الإنسان في تركيب التاريخ"¹³؟

بقول بأن الفرد يؤثر في المجتمع بفكره، وبعمله، وبماله يعني هناك توجيهات تتحكم فيه وهي: توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال. فالتوجيه نابع من القراءة الأساسية للواقع المعيش، ويسير على الوحدة في الهدف، كما يعتمد التوجيه حسبه على تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت.

ومن أجل بلوغ الأهداف المنشودة يجب الاعتماد على الأساس الثقافي الذي بدوره يبنى على الدستور الأخلاقي والذوق الجمالي والمنطق العملي والصناعة (التقنية). لكن الملاحظ على بن نبي أنه ركز على التوجيه الثقافي والتوجيه الأخلاقي. وعندما يتكلم بن نبي عن الإنسان يتكلم عن المرأة باعتبارها فردا من المجتمع له دوره وكيانه.

التراب: يعتبره بن نبي عاملا أساسيا من عوامل الحضارة، والتراب عنده هو الأرض، ولاتقاس بحجم مساحتها بل بقيمة أهلها " فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة، وحضارتها متقدمة، يكون التراب عالي الثمن، وحينما تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الإنحطاط".¹⁴

ويقول أيضا " إنَّ التراب في أرض الإسلام عموما على شيء من الإنحطاط، بسبب تأخر القوم الذي الذي يعيشون فيه"¹⁵، مالك بن نبي يحاول أن يبرز أن الدولة أو المنطقة هي التي

¹³ - مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين وعمر بسقاوي، دار الوعي، الجزائر، 2012، ص 83.

¹⁴ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 139.

¹⁵ - المصدر نفسه، ص 139.

تحدد الأبعاد ومن ثمّ بلوغ الغايات المرجوة فرديا واجتماعيا داخل هذا التراب. حين نتكلم عن التراب نتكلم عن الدور الحقيقي والفعال في بناء الحضارة.

الزمن: (الوقت) الزمن رافق الإنسان منذ أن خلقه الله على هذه الأرض، فلا يوجد شعب يمارس نشاطه خارج إطار الزمن "إنه نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل"¹⁶، فالزمن هو جزء من التاريخ يجب المحافظة عليه ليبقى جزءا من الحياة وجوهرها، فالحياة والتاريخ في العالم الإسلامي تخضعان للوقت أو الزمن باعتباره شرط ضروري في بناء منتجات الحضارة.

إذن جوهر عملية البناء الحضاري لا تتم إلا عندما يعطي المجتمع أهمية كبيرة لعالم الأفكار، على حساب عالم الأشياء يعني تقديم الدوافع التي تحرك المنتجات المادية. ف"لا يمكن بأي حال من الأحوال لركام من المتناقضات التي جمعت بشكل فوضوي رغم تنافرها أن تسهم في بناء حضارة، لأن أي حضارة ما هي إلا ذلك المتكامل المتجانس الناتج عن جهود الأفراد والجماعات، أمّا التكديس فهو غير ذلك تماما"¹⁷، ويرى بن نبي أنّ التكديس في المجتمع ظاهرة مضرّة، وهي تظهر حتّى في الأفكار"¹⁸، ولحلّ مشكلة الحضارة يجب حل ثلاث مشاكل كما سبق الذكر: مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لإنسجامه مع سير التاريخ، مشكلة التراب وشروط إستغلاله

16- نفسه، ص145.

17- محمد عاطف، معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك بن نبي، ط1، دار قرطبة للنشر، الجزائر، 2009، ص50.

18- مالك بن نبي، تأملات، مصدر سابق، ص 166-167.

في العملية الإجتماعية، ومشكلة الوقت وبعث معناه في نفسية وروح كلا من الفرد والمجتمع.

كما أنّ الحديث عن البناء الحضاري يجعلنا نتتبع بن نبي في قوله أنّ الثقافة بمفهومها الفلسفي والفكري فحسب، ولكن بمفهومها البراغماتي العملي. لأنّ المشكلة لا تنحصر في فهم الثقافة، التي هي "مجموع ثمرات الفكر في ميادين الفن والفلسفة والعلم والقانون"¹⁹، وإنما في تحقيقها عمليا، لذا يرى مالك بن نبي أنّ الثقافة هي التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة وهي: الأخلاق والجمال والمنطق العملي والصناعة. وإذا أردنا البحث في مشكلة الثقافة كما يقول بن نبي وجدنا أنفسنا نواجه أسلوب الحياة وأسلوب السلوك الذي ينسجم معها، "تصبح الثقافة نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة"²⁰. ذلك على المجتمعات التي تتبغى النهوض أن تطهّر عاداتها وتقاليدها أي إطارها الثقافي بصفة عامة ما يسميه بن نبي "العوامل القتالة".

تكلم بن نبي عن مفهوم القابلية للإستعمار ومعامل الإستعمار، وخلصته أنّ الفرد الجزائري المسلم ساهم في بناء الحضارة الإسلامية، وذلك بفضل قيمتين قيمة طبيعية وقيمة إجتماعية، إنّ الإستعمار أدرك هذه القيمة الطبيعية وخاصة في مجموع الثورات التي قامت بها وانهزمت فيها، فإدراكها للقيمة الطبيعية لم تدرك نقصها بل رفعت من قيمة شعبها ونقلت هذا

¹⁹ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر

المعاصر، بيروت، طبعة 4، 2000، ص 28.

²⁰ - المصدر السابق، ص 88.

النقص إلى المواطن الجزائري في مسه في قوته الطبيعية والإجتماعية.

لكن السؤال الذي يواجها ليست فرنسا وحدها التي استعمرت، كما أنّ الجزائر ليست وحدها التي وقعت تحت السيطرة الإستعمارية؟ لقد أجاب بن نبي عن هذا السؤال ضمناً في قوله: "ولكي نتبع المقياس الصحيح في درس الإستعمار نحتاج أن نراه في أعماق التاريخ وأن نوسّع نطاق البحث فيه لأنّه بالشيء الذي بخصّ علاقات الجزائر بفرنسا فحسب، ولكنّه يهم بصفة عامة علاقات الحضارة الغربية بالإنسانية منذ أربعة قرون"²¹.

إنّ ظاهرة الإستعمار في نظر بن نبي تعود أصولها إلى روما، فهي التي استعمرت عدّة شعوب وحضارات، وإنّ استعمار روما لتلك الشعوب يعتبر نكسة في التاريخ الإنساني، يقول " إنّ مايميّز العبقريّة الرومانية إنّما هو الروح القيصريّة (الروح العسكريّة)، وإنّ مايميّز الحضارة الإسلاميّة هو الروح الإنسانيّة"²². أمّا القابليّة للإستعمار فهو معامل داخلي على حساب أنّ الإستعمار هو المعامل الخارجي فهذه القابلية تسيطر على الشخصية الإنسانية في البلاد المستعمرة – بالفتح- وهي نتيجة طبيعية لهشاشة البناء الثقافي لهذا الإنسان حيث يؤكد بن نبي أنّ الإستعمار يلوث الإنسان، وأنّ تصفيته من رواسب الإستعمار أصبح أهم عمل ثوري، فلا يمكن بناء وطن مستقل من غير بناء إنسان مستقل ولا يتمّ بناؤهما إلاّ

²¹- مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص152.

²²- المصدر نفسه، ص154.

بفكر تحرري، وبثقافة أساسها الأنا الثقافي(الهوية) التي هدفها التفتح على الآخر (العصرنة والحدثة).

خاتمة:

يعدّ مالك بن نبي من أبرز المفكرين الجزائريين المعاصرين اللذين عنوا بالبحث العميق فيجذور البناء الحضاري، ويكفي أن نقرأ له كتاباته الفكرية لنعرف ذلك، فعند قرائتها سنكتشف قوة التحليل وعمق الطرح. فتأثره بأهم المرجعيات الفكرية ساهم في تطوّر أبحاثه وأفكاره، يؤكد بن نبي في مشروعه أنّ جوهر البناء الحضاري ينطلق من الفكر، لذا فالحضارة هي التي تلد منتجاتها ولا يمكن بناء حضارة بشراء منتجات حضارة أخرى. والذي يبني الحضارة هو الأفكار التي تحدد قيمة التحضر عند الإنسان، فقد لاحظ أنّ المجتمع الإسلامي هو مجتمع يفتقد للأفكار مجتمع يحارب بالأسلحة وليس بالأفكار، فمن عوامل البناء الحضاري هو الوقوف عند عالم الأفكار وليس الأشياء. لأنّ النهضة لا تتمّ إلاّ بالارتقاء من عالم الأشياء إلى عالم الأفكار، فالنهضة ليست هي الحضارة بل هي العملية التي تبني الحضارة بواسطة عالم الأفكار التي هو الجانب الثقافي للمجتمع أو الأمة.

لقد إستنتج بن نبي أنّ الحضارة تبنى على الأساس الثقافي، لذلك جاء سؤال النهضة عنده سؤال من التراث إلى الحدثة. يبدو لنا أنّ بن نبي كان يحمل مشروع حضاري متكامل أساسه الثقافة التي تتماشى مع مكونات الهوية للفرد العربي المسلم،

لهذا يصبّ هذا البحث في إطار استنتاج مفهوم النهضة وشروطها في بناء الحضارة وميلادها في حدود أفكار مالك بن نبي المفكر الجزائري.

وأختم بأنّ مالك بن نبي عندما حدّد معادلة النهضة والحضارة قال: أنّ الحضارة عبارة عن إنسان + وقت + تراب. وكل نهضة دخلت متحف الحضارات إنّما احتاجت إلى وقت وربما كان طويلا حتى أرست دعائمها وركائزها . ونهضة العالم الإسلامي هي من صنع رجال الفكر والثقافة وهي أحد المسؤوليات والواجبات الخاصة بهم.